من دعاة الحـــرية

جويو

للأستاذ زكريا ابراهيم

ليس أكثر من دعاة الحرية فى هذا العصر ! وليس أكثر ايغاراً للصدور من دعاة حرية الفكر ! وما أنا بغافل عن تلك الضجة التى أثيرت منذ أمد قريب ، حين عرض أحد الكتاب لقضية الحرية الفكرية ... ومع ذلك فانى أجد نفسى راضياً بأن أثير هذه المسألة الشائكة الشائكة معاً ، لأجل خاطر «جويو» صاحب هذه الدعوة !

وصديقنا جويو فيلسوف أصيل جمع بين العمق والطرافة والوضوح . وهو واحد من أولئك الفلاسفة القليلين الذين استطاعوا أن يفهموا الفلسفة على أنها قطعة منتزعة من قلب الوجود ، وليست مجرد أفكار عقيمة لا تمت الى الحياة بأدنى سبب . فالفكرة الجوهرية فى مذهب جويو هى أن « الحياة » جوهر الوجود ، وأن الفكر ماهو الا جانب من جوانب الحياة . وقد استطاع جويو أن يوفق بين النزعة الفردية والنزعة الاجتماعية على أساس هذه الفكرة ، فذهب الى أن المثل الأعلى للحياة الفردية ، انما هو ذلك الذى تتمثل فيه الحياة الحافلة ؛ والحياة الحافلة هى تلك التى لا تكون فيها الذات مغلقة على نفسها ، بل تكون قادرة على أن تسع غيرها من الذوات . ومعنى هذا أن نقطة البدء فى فلسفة جويو هى « الفردية » لأن الحياة الخصبة الحافلة انما هى الحياة الفردية التى لا تكون فيها معارضة بين الفرد والمجموع ، اذ تمتد الذات حتى تشمل المجموع وتضمه تحتها !

وقد نشأت فكرة الحرية عند جويو كنتيجة لهذه النزعة الفردية الخاصة . ونحن ندع جويو يعبر عن هذه الفكرة بعبارته التى تفيض قوة وحماسة ؛ فيقول :

« ... ألا يمكن أن يأتى ذلك اليوم الذى فيه تزول كل العقائد السائدة التى يتمسك بها الناس ، بحيث لا يبقى أى ايمان عام يستأثر بالنفوس أو يتملك العقول ؟ ألا يمكن أن يحين ذلك اليوم الذى فيه يصبح الاعتقاد « فرديا » خالصا ، فلا تعود هناك سنة بل خروج وابتداع ؟ ان الرغبة فى التحكم فى العقول هى أسوأ بكثير من الرغبة فى التحكم فى الجسوم ، فمن واجبنا اذن أن نتحامى أولئك الذين يريدون أن يفرضوا أنفسهم علينا ، أو أن يجعلوا من أنفسهم موجهين لأفكارنا ، أو قادة لضمائرنا ... أجل ، يجب علينا أن نتجنب هؤلاء كما نتجنب المصائب والمحن ! فقد آن الأوان لأن نسير بمفردنا ، وأن نفزع من أولئك الوعاظ الخادعين ... علينا أن نصبح نحن قادة لأنفسنا ، فلا نعتمد الوحى والإلهام الا فى نفوسنا . أما المسيح فلم يعد موجوداً ، لأنه ليس ثمة ايمان عام بعد اليوم ! فليكن كل واحد منا اذن مسيحا لنفسه ، وليتصل بربه كما يشاء ، وليعتمد على الهه كما يستطيع ... وليتصور كل منا هذا الكون كما يحلوله ، وليخترأى نظام يروقه. أما أولئك الرجال الذين قد يستطيع المسيح أن يقول لهم : ما أقل إيمانكم ، فطوبى لهم اذا كان معنى هذا أنهم رجال مخلصون لا يريدون أن يخدعوا عقولهم ، أو أن يلغوا ذكاءهم ، أو أن ينتقصوا من كرامتهم ! طوبى لهؤلاء القوم ، لأنهم يملكون روحا علمية حقيقية ، وفكراً فلسفيا صادقا ، ولأنهم لا يؤخذون بالظاهر ، بل يأخذون الحذر حتى من عيونهم وعقولهم ، ولأنهم يبدأون دائما من جديد ، فاحصين احساساتهم ، وممتحنين استدلالاتهم ، ان هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يظفروا بجانب من الحقيقة الخالدة ، لأنهم لا يظنون فى أنفسهم أن فى وسعهم أن يظفروا بالحقيقة كلها ؛ فلديهم اذن قدر كاف من الإيمان الحقيقى الذى يدفعهم الى أن يبحثوا دائما ، بدلا من أن يركنوا الى الراحة والهدوء ، مكتفين بأن يرسلوا الصرخة العالية قائلين : لقد وجدنا ! لقد وجدنا ! أجل ، إن هؤلاء هم الشجعان الذين يواصلون السير والتقدم ، حين يتوقف غيرهم ويركن الى الدعة والخمود ؛ فالمستقبل لهم وحدهم ، وفى أيديهم يقع مستقبل الإنسانية فى العصور المقبلة ! »

هذه هى الحرية الفكرية كما يفهمها جويو ، فهى فى نظره ضرورة من ضرورات الحياة الحاضرة ، وحاجة من الحاجات الهامة التى يقوم عليها مستقبل الإنسانية . وليس أحب الى نفسى من هذه العبارة الخالدة التى يصور فيها جويو موقف الإنسانية اليوم فيقول